مجلة الدراسات الفلسطينية، المجلد 14، العدد 54 (ربيع 2003)، ص 109

آخر الإقطاعيين في فلسطين*

سليم تماري**

قرية ليست كالقرى، ومدينة ليست كالمدن، وأسرة تختلف بتقاليدها عن الأسر القروية، وقلاع وحصون، وقصور تمتاز عن عمارات القرى ومساكنها، وتقاليد مقدسة يحرصون عليها كل الحرص، وآثار علم وأدب، وحضارة قديمة زاوية جفّت بعد أن رفّ عليها ظل العز والترف العريق. لباس للرجل وللمرأة لا يشبهه لباس جيرانهم، ومآكل شهية اجتازت أفق البداوة في تنوعها وإتقانها. فالبلدة واحة خضراء في صحراء قاحلة، والأسرة كأنها نبتة زاهرة اقتلعت من مدينة بعد أن انغمست جوانبها في الحضارة، ونقلت إلى هذه الضيعة القصيّة النائية عن المدن والبحر. (ص 21)

فالزائر لهذه البلدة يرى لأول وهلة عمارات ضخمة، وحصوناً شامخة، فيحار فيما إذا كان يزور قرية أو مدينة، ويزداد حيرة حين يتساءل لماذا بنيت هذه العمارات في هذه القرية ولم تنتشر في القرى الأُخرى؟ (ص 72)

(من كتاب "المراحل")

تقدم لنا مذكرات عمر الصالح، حفيد الشيخ صالح عبد الجابر البرغوثي (1819 – 1881)،[1] آخر زعماء دير غسّانة، وابن الشيخ حسين الصالح (توفي سنة 1919)، نافذة فريدة على الأيام الأخيرة لزعماء فلسطين الوسطى الإقطاعيين في أواسط القرن التاسع عشر – عندما شرعت التنظيمات العثمانية في خصخصة ملكية الأراضي. كانت دير غسّانة مقر بني زيد شمالي القدس. وكان الملتزمون فيها يسيطرون على أراضي عشرين قرية تفصل القسم الشمالي من تلال القدس عن جبل نابلس، ويمارسون سلطة واسعة على الفلاحين في المنطقة.

إن لحياة عمر الصالح أهمية كبرى لأنها توضح على مدى خمسة عقود الانتقال من إظهار اعتداد واضح بالامتياز الأرستقراطي المحلي إلى تبني الصلات الوطنية الحضرية ونمط الحياة المصاحب لها. وقد قادته صلاته المقدسية إلى عدد من التحولات السياسية: تبنّي مسار اللامركزية العثمانية، وما تلاه من انغماس تام في القومية العربية الفلسطينية. وأصبح، بعد انضمامه إلى حزب الاستقلال، من

(*) المصدر: *Jerusalem Quarterly File*, no. 16 (November 2002), pp. 27-42.

(**) أستاذ مشارك في علم الاجتماع في جامعة بير زيت، ومدير مؤسسة الدراسات المقدسية (القدس).

(1) التاريخان غير أكيدين، وهما مستقان من مصادر شفهية ذكرها فتحي أحمد (انظر أدناه الحاشية 5). وأود أن أتقدم بالشكر إلى سعاد العامري وريما حمامي على إبداء تعليقاتهما على مسودة هذه المراجعة.

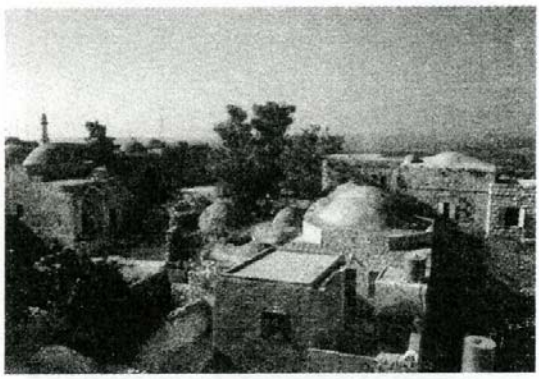

قصر الشيخ صالح في دير غسّانة
تصوير سعاد العامري ـ أرشيف رواق

المعارضين البارزين لزعامة الحاج أمين الحسيني.[2] وبعد حرب 1948، ارتبط عمله بالنظام الأردني بشكل وثيق على الرغم من انتقاده الملك عبد الله، وعمل وزيراً في حكومتين متتاليتين. وأدى نشاطه ضد المشروع الصهيوني وتحريضه ضد المندوب السامي البريطاني، هربرت صامويل، إلى نفيه إلى عكا في عشرينات القرن العشرين.

لكن عمر كان أيضاً علاّمة وداعية نشيطاً إلى تعليم المرأة وفق التقليد العلماني الليبرالي. وفي سنة 1919 شارك في تحرير "مرآة الشرق" المقدسية، إحدى أكثر الصحف نفوذاً في فلسطين في ذلك الوقت. وتضم مجموعة كتبه: "تاريخ فلسطين" (مع خليل طوطح، 1923)، و"دراسات في الفولكلور والعادات الفلسطينية" (1922)، و"القضاء عند البدو في فلسطين" (1929)، و"المجهول: الوزير اليازوري" (1948)، و"تاريخ الأمويين" (من دون تاريخ)، وعدة أعمال قصصية ومخطوطات تاريخية غير منشورة.[3] درس القانون في أثناء الانتداب، وصار أستاذ القانون في معهد الحقوق الفلسطيني، حيث ألّف عدداً من النشرات القانونية، بما في ذلك "فهرست قوانين وأنظمة فلسطين" في سنة 1931.

(2) أمين الحسيني مفتي القدس في أثناء الانتداب وزعيم الحزب العربي الفلسطيني، قوة المعارضة الرئيسية ضد السلطات البريطانية في ثلاثينات القرن العشرين.

(3) للحصول على لائحة بهذه المنشورات، راجع: يعقوب العودات، "من أعلام الفكر والأدب في فلسطين" (عمّان، 1976)، ص 43.

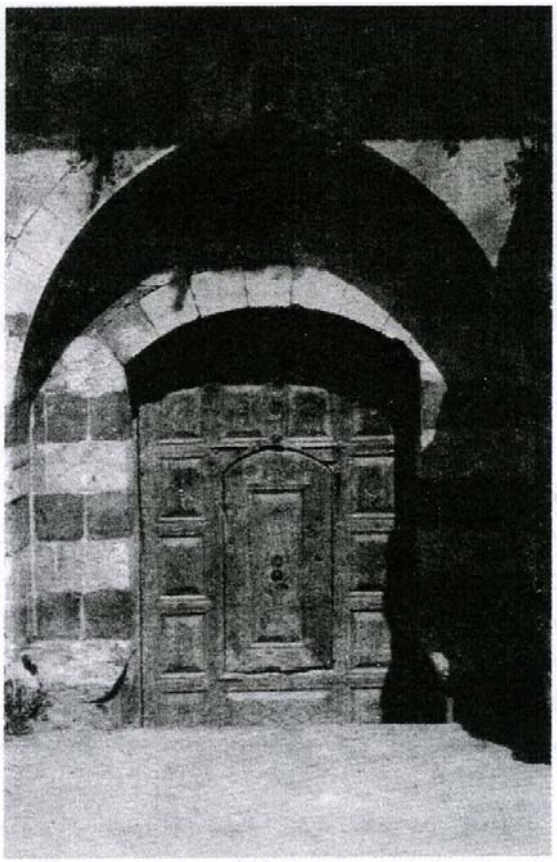

مدخل القصر
تصوير سعاد العامري ـ أرشيف رواق

توضح مذكرات عمر بشكل حيوي أن التحول من نظام الالتزام، الذي أُلغي رسمياً سنة 1858، طال وامتد وأبقى كثيراً من الامتيازات في أيدي الإقطاعيين في مناطق بني حارث وبني زيد وبني مرّة بعد إلغائه رسمياً بفترة طويلة. ومن هذه الامتيازات استمرار جمع ضريبة العُشر باسم الباب العالي،[4] والتحكيم في المنازعات بشأن الأراضي، ومزاولة القضاء التقليدي، وملكية العبيد في المنازل، والمهمات الإدارية المتعددة التي أناطتها بهم السلطة التحديثية في إستانبول. كما تُبيّن أن العلاقة الغنية والمعقدة التي تربط، عن طريق أواصر المصاهرة والدعم المتبادل، بين الزعماء الإقطاعيين لبني صعب – عشيرة الجيوسي، وبني زيد، وبني حارث، وآخرين غيرهم – وبين نخب الأعيان في القدس ونابلس، كانت أكثر قوة مما تفترضه الكتابات في الغالب. ويزعم البرغوثي في هذا السياق أن عزة أسرته نشأت في القدس نفسها،[5] حيث كُلِّفت الإشراف على دخول المدينة عبر باب الداعية (الباب الجديد لاحقاً) عندما تعاقد الباب العالي مع العائلة من أجل القيام بأعمال الالتزام لمصلحة الدولة في منطقة كبيرة تشمل بني زيد وبني مرّة وبني سالم ومناطق أُخرى تمتد حتى سواحل البحر الأبيض المتوسط.[6] غير أن الأهم من ذلك هو تأثير هذه

(4) السلطان كممثل للدولة العثمانية في إستانبول.

(5) يطعن عدة مؤرخين، بمن فيهم إحسان النمر، في هذه الادعاءات وكثير غيرها. للحصول على نقد مقبول ووجهة نظر بديلة بشأن أصول عائلة البرغوثي ومكانتها، راجع: فتحي أحمد، "تاريخ الريف الفلسطيني في العهد العثماني: منطقة بني زيد نموذجاً" (رام الله، 1992)، الفصل السادس: "الصراع القبلي في بني زيد في العهد العثماني"، ص 173 – 209.

(6) عمر صالح البرغوثي، "المراحل" (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2001)، ص 33. حَرَّرت هذه المذكرات رفيف البرغوثي، ونشرتها المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت وعمّان، 2001 (739 صفحة، و24 صورة فوتوغرافية، وخمسة ملاحق). ومن الانعكاسات المؤسفة للأوضاع السائدة حالياً، أن من المستحيل فعلياً شراء هذا الكتاب إلاّ إذا توجه القارئ إلى لبنان، لأن الكتاب غير متوفر في الأردن (بسبب منعه) وفي فلسطين (بسبب تعذر استيراده)، وهما البلدان اللذان يضمان القطاع الرئيسي من قرائه المحتملين.

التحولات في حياة أعضاء

هذه الأرستقراطية الريفية الذين بدأوا الانتقال إلى مراكز النواحي وغيرها من المدن الكبرى في فلسطين – والقدس في هذه الحالة. ومذكرات عمر مهمة بسبب رواياتها الذاتية والحية، على الرغم من أن في الإمكان تحدي بعض جوانب تاريخ العشيرة المدرج في تلك الصفحات.[7] ولعل الوصف البليغ والمفصل للحياة اليومية في قصر الشيخ صالح، جد عمر، ووالده الشيخ محمود، في الأيام الأخيرة للسلطنة، يجعل من هذه المذكرات كنزاً ثميناً للمؤرخين.

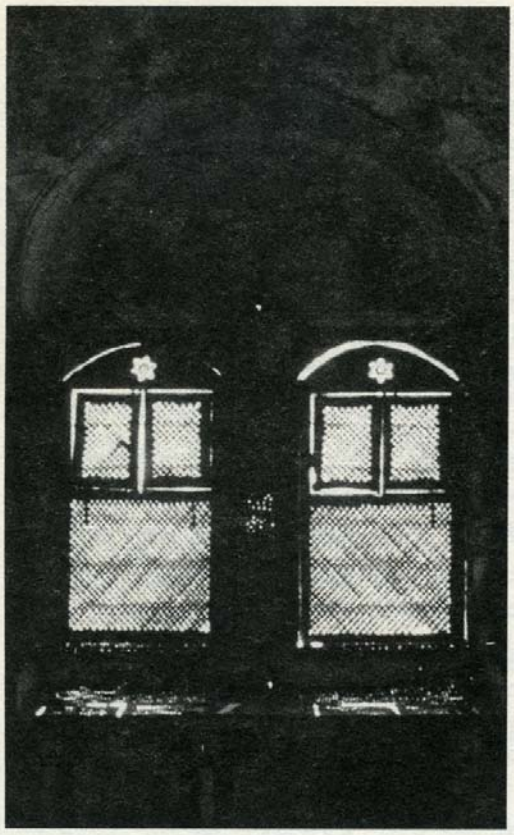

نافذة الحرملك (المشربية) من الداخل ومن الخارج في قصر الشيخ صالح.
تصوير سعاد العامري ـ أرشيف رواق

لكن أهمية المذكرات تتجاوز تفصيلات الحياة الشخصية للمؤلف، إذ إنها تعرض فرصة نادرة لمعاينة طبقة جديدة في أثناء تكوّنها. ولعل عمر الصالح هو كاتب المذكرات الوحيد الذي يسجل التحول الحاسم لسلالات الزعماء الإقطاعيين الكبار في فلسطين القرن الثامن عشر من عشرين قرية متميزة إلى مدن القدس ونابلس ويافا وحيفا، أي

(7) على المرء أن يأخذ رواية البرغوثي عن تاريخ أسرته بحذر شديد. إذ يشير فتحي أحمد، الذي أرّخ لمنطقة بني زيد – وهو على صواب في ذلك – إلى أن البرغوثي يتجاهل فعلياً منافسي عائلته الرئيسيين بشأن السلطة في المنطقة، وهم عشيرة سحويل في عبوين. كما أنه يعتبر ادعاءات البرغوثي بالانتساب إلى خالد بن الوليد، وإرجاع أصول عائلته إلى وجهاء القدس، محض افتراض واختلاق. وقد نشر أحمد هذه التعليقات قبل صدور "المراحل"، وكان يشير إلى "تاريخ فلسطين" للبرغوثي (كتبه بالاشتراك مع خليل طوطح)، لكن نشر "المراحل" لا يغيّر، في رأيي، أساس حكمه.

المراكز الحضرية الكبرى في البلد. وهناك، أخذت تتشكل طبقة حضرية جديدة مهيمنة من شبكات المجموعات التجارية المؤتلفة والأعيان الحضريين والملاّك الوافدين الذين قدموا من مناطقهم الريفية. وتمثّل عائلات طوقان وعبد الهادي والقاسم والجيوسي هذه الفئة الأخيرة، التي كان يعرفها عمر الصالح معرفة وثيقة عن طريق المصاهرة والشراكة التجارية والتحالفات والخصومات السياسية.

في الكتاب الأول من المذكرات، يذكر عمر الحد الكبير الذي يفصل مساكن البراغثة عن مساكن بقية فلاحي القرية. كان قصر أبيه، الذي بني أصلاً سنة 1603 (1011 هجرية)، مقسماً ثلاثة أقسام: السلاملْك، الذي يضم المضافة ومنطقة الاستقبال وغرف الطعام؛ الحَرَمْلك، وهو مكان إقامة النساء والخدم؛ منطقة الخزين، وتضم الورش والاصطبلات ومخازن الطعام. وكانت نوافذ الطبقات العلوية ترتفع عالياً فوق القرية، وكان لها مشربيّات تستطيع من خلالها النسوة أن يَرَيْن من دون أن يُرَيْن. وفوق كل ذلك، توجد العُليّة، وهي خلوة الشيخ ومكان استراحته المشرف على أملاكه.[8]

خلافاً لنمط حياة نساء الفلاحين في المنطقة، كانت النساء البرغوثيات يتشددن في الحجاب ويلزمن الحَرَمْلك. كن يتسترن من أعلاهن إلى أسفلهن بالعبايات السود، ولم يكن يُسمح لهن بزيارة قريب لتعزيته إلاّ بعد المغيب مصحوبات بأحد المحارم. غير أنهن في بيوتهن كن يرتدين الألبسة المدنية الأرستقراطية. وكانت الشيخة ترتدي الطربوش المزيَّن بالنقود الذهبية، وكان أعلى غطاء شعرها مرصعاً باللآلئ. كان لباس النسوة اليومي مصنوعاً من أقمشة قطنية أو حريرية خفيفة غير مطرزة. وكن يرتدين في أرجلهن الخلاخيل الفضية. وخلافاً للنساء الحضريات، لم تكن النساء البرغوثيات يستخدمن أحمر الشفاه أو البودرة، لكنهن كن يكحّلن عيونهن وينتفن حواجبهن.[9] وكان في وسعهن جمع ثروات صغيرة من الاتجار بالأقمشة بشكل رئيسي، ومن إقراض المال بفوائد عالية جداً.[10]

مع ذلك، كانت حياتهن مقيدة جداً عبر تقليد متشدد في التزام البيت؛ وهو تقليد جعل النساء البرغوثيات فريدات بين العائلات الإقطاعية في فلسطين (لم يكن هناك سوى عائلات الجيوسي والريّان وعبد الهادي تماثلهن في الحجاب والتزام البيت).[11]

(8) للحصول على دراسة شاملة عن العمارة الإقطاعية في دير غسّانة، راجع:
Suad Amiry, "Space, Kinship, and Gender: The Social Dimension of Peasant Architecture in Palestine,"
(أطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة أدنبره، كلية العمارة، 1991).

(9) البرغوثي، مصدر سبق ذكره، ص 41 – 42.

(10) المصدر نفسه، ص 61.

(11) للوقوف على مقارنة للأوضاع الاجتماعية في قرى الكراسي وسط فلسطين، راجع: سعاد العامري ورنا عناني، "العمارة والتاريخ: قرى الكراسي" (رام الله: منشورات رواق، 2003)، (في قيد الطباعة).

وقد تعزز التزام البيت بحصر الزواج في الأقارب: لم تكن النساء البرغوثيات يُزوَّجن إلاّ بأفراد في الأسرة نفسها وفي دائرة ضيقة من العائلات الإقطاعية، منها الجيوسي والريّان وأبو كشك والأمراء المسعوديون. في المقابل كانت النساء الفلاحات غير مقيَّدات:

> *فليس دونهن حجاب، ويظهرن بارزات للناظرين، ويمارسن الأعمال مع الرجال الأجانب، فيسرحن مع العمال، وينقلن المياه ويحتطبن ويحصدن ويَنْمنَ في الحقول، وتحت الأشجار، وينطرن الكروم... إلخ؛ والرجال يدخلون البيوت على النساء دون محظور، وربما نام الضيف في بيت ينام فيه النساء.*[12]

ومن السمات المميزة لأعيان دير غسّانة امتلاك العبيد؛ وهو ممارسة امتدت إلى الثلث الأول من القرن العشرين. وقد كان مقر العبيد في قصر عمر الصالح يضم حرس القصر والخدم والطهاة والمقاتلين، وكثيرون منهم تربوا في كنف العائلة منذ الطفولة. وكان عبيد آل البرغوثي يلبسون لباساً جيداً، كما قيل لنا، ويحملون السلاح، ويمتطون الخيل. وكانت مكانتهم، وفقاً لعمر الصالح، أرقى من مكانة الفلاحين المحليين، كما كانوا يحملون اسم سيدهم.[13]

عمر يهجر "أُم الدنيا"

في سنة 1898، أُرسل عمر إلى كُتّاب القرية لدراسة القرآن وقواعد اللغة، وكان آنذاك في الخامسة من عمره. وعندما اجتاز اختبارات ختم القرآن، وكان في التاسعة، أرسله أبوه إلى مدرسة الأليانس؛ وهي مدرسة ابتدائية يهودية فرنسية اللغة في القدس. وكان القصد من ذلك دراسة الفرنسية والتركية، وهما لغتا السلطة دولياً ومحلياً، استعداداً لمتابعة الدراسة في إستانبول. وهناك اكتشف العالم خارج القرية، ومباهج الحياة الجديدة في المدينة الكبيرة. ويشير عمر في الكتابين الأولين من مذكراته – وهما يغطيان طفولته وشبابه – إلى نفسه بصيغة الغائب دائماً:

> *فيخلو بنفسه ويقول: "كنت في دير غسّانة أظن أنها أم الدنيا وعاصمة العواصم، فلمّا قدِمْتُ القدس وجدت فوق ما تصورت، وشاهدت عربات تجرها الخيول مُعدّة للأجرة تسير في طرق طويلة عريضة معبدة إلى البيرة ونابلس ويافا والخليل وأريحا، يركبها شخص واحد أو يشترك معه آخرون ويدفع كل منهم حصته، أمّا الكارات التي تجرها خيول أو بغال فكانت مُعدّة لنقل البضائع*

(12) البرغوثي، مصدر سبق ذكره، ص 30.
(13) المصدر نفسه، ص 43.

والأثقال." كان يتهيب الركوب في العربات، فلمّا ركبها مع والده سهلت عليه وصار يركبها يومياً من باب الخليل إلى مدخل مدرسته، ويدفع "متليكاً" يعادل ثلث قرش، ويتلذذ ويطرب في رحلته القصيرة.

رأى المصابيح في الليل على جوانب الشوارع تنيرها وتبدد الظلام وتسهل السير في الليل. شاهد هؤلاء الأجانب أصحاب البرانيط بألبستهم الرسمية الأنيقة، وشاهد السنيورات (السيدات) الأجنبيات الجميلات اللواتي يلبسن أزياء نفيسة، ويخرجن سافرات الوجه، يجلبن الفتنة وينبهن الشهوة، وهاته النسوة المحجّبات اللواتي يتدثرن بالملايات السود، ويسدلن على وجوههن منديلاً أسود ويسرن بين الرجال بلا حياء. ثم هؤلاء الرجال الذين يذهبون إلى الدكاكين يتبضعون رطل طحين وأوقية زيت وأوقية سمن ورطل بصل... إلخ، فيرى في هذا بدعة غير مستحسنة، فلماذا لم يشتروا كمية كبيرة تكفيهم مدار السنة أو الشهر وهو تعود أن يرى أهله يخزنون الشيء الكثير ليكفيهم سنة أو مدة طويلة، وأن شراء حاجة البيت اليومية عادة غير معروفة ولا مألوفة.

وكذلك رأى الشوارع في داخل المدينة مرصوفة بالحجارة لتمنع تراكم الوحل ولتظل الطرق نظيفة. رأى الزجاج على النوافذ فاستحسنه واستجمله، يجلب الفضاء والنور ويمنع البرد والهواء ويحول دون دخول الغبار، وهذا يليق بالمدينة أكثر مما يليق بالقرية لأن الصغار في القرية يحصبونه بالحجارة فيكسرونه وإذا نشبت "طوشة" في القرية سلّطوا حجارتهم على الطاقات فحطّموا زجاجها بسهولة.[14]

عند اقتراب عمر من سن البلوغ، وجد مسكناً في البلدة القديمة عند ماريا القبطية – وهي صنف من النساء لم يصادفه سابقاً؛ فهي، على حد قوله، "إمرأة نصف، تدخن أركيلة، مرحة، تغني وترقص" (ص 86). تبنّته ماريا فعلاً، وأدخلته عالم المدينة. كانت إشاراته المتكررة إليها غير مباشرة، لكنها مفعمة باكتشاف الشباب للجنس. كانت تحمّمه مرة في الأسبوع، وتفرك جسمه بالليفة، بينما تروي له قصصاً عن الحب والمشاعر موشاة بكلمات مبتذلة لم يكن يعرفها من قبل. وقد أصبحت رفيقته، وأبقت على صداقتها له بعد أن انتقل إلى مسكن جديد.

في القدس، كان عمر دائم الاهتمام بإجراء مقارنات مع بيئته القروية، ويشعر

(14) المصدر نفسه، ص 87.

بالنفور من أساليب المدينة وبالانجذاب إليها في آن واحد. كان يشعر بانزعاج شديد لأن والده يعامَل كمواطن عادي، لا شيخ بني زيد، وهو ابن الشيخ البكر. ولزمه وقت طويل ليعتاد أجواء المطاعم والمقاهي والبارات والفنادق، حيث يدفع الزبائن المال في مقابل طعامهم. وأصيب عمر بالذهول من الشرب العلني للكحول، إذ لم يكن المسلمون يمتنعون من الشرب إلاّ في رمضان. لكنه افتُتن بعادات النساء في المدينة: ثيابهن الضيقة وأحمر شفاههن وطريقة مشيهن، "إن هذا لشيء عجاب" (ص 91). لكنه سرعان ما تأقلم مع المدنية، وفي العام الثاني صار يُحرج فعلاً من أن يُرى ماشياً بصحبة زوّاره من القرية.

> *اندمج الطفل المراهق في حياة المدينة فاحتقر اللباس العربي، والحطة والعقال أو التلاوية والكوفية والقنباز والعباءة، وتجنب الظهور مع الفلاحين في السوق خشية أن يُنعت بأنه "فلاح"، وكان هذا اللقب حقيراً لزراية لباسه، وضحالة طباعه، وقذارة مآكله، وما للفلاحين من لهجات جافة وعقول ساذجة. واختار من لهجة القدس ما راق له وطاب، وبقي يلفظ حرف القاف قافاً والظاء ظاءً والثاء ثاءً والذال ذالاً... إلخ، لا آفاً ولا زياً، ولا تاءً أو سيناً ولا زياً، فكان يقول "قهوة" لا "أهوة" و"ظلم" لا "زلم" و"ثلاثة وثلث" لا "سلاسه وسلس" و"ذل" لا "زل"... إلخ، واحتفظ بأصول اللغة الفصحى.*[15]

شكّل التعليم المدرسي لعمر سجلاً لتحديث التعليم في فلسطين العثمانية. وأبرز انتقاله من الكُتّاب إلى مدرسة الأليانس تعرّفه على التعليم العلماني. ومن ثم انتقل إلى مدرسة الفرير ذات المنهج الفرنسي الأقوى. ولشدّ ما راع والده مقدار التلقين المسيحي الذي يخضع له. وقد تمرد المسلمون واليهود وأضربوا اعتراضاً على الصفوف الكاثوليكية الإلزامية، لكن من دون جدوى. فانتقل عمر إلى مدرسة السان جورج (وهي مدرسة إنجيلية)، حيث التدريس بالعربية والإنكليزية، والتعليم ليبرالي ومنفتح، ويدرَّس المسلمون واليهود النصوص الدينية الخاصة بهم. ومن أساتذته، الذين يذكرهم، خليل السكاكيني، المربي التقدمي الذي منع استخدام العنف ضد التلاميذ. وفي العام الخامس من التعليم المدرسي، انتقل عمر ثانية إلى المدرسة السلطانية في بيروت – حيث التدريس بالعربية والتركية يعدّه لدراسة القانون في إستانبول (دار الفنون).

كانت مدرسة بيروت السلطانية، وهي المدرسة الإقليمية، قائمة على انضباط عسكري. وكانت مواد العلوم والتاريخ والجغرافيا والرياضيات والتربية المدنية

(15) المصدر نفسه، ص 105.

والقواعد والأدب تدرَّس كلها بالتركية – باستثناء اللغة العربية. وكانت الهيئة التعليمية تشرف على الطلاب دائماً في أثناء صلواتهم اليومية الخمس، وفي أثناء تناولهم الطعام، وفي الصفوف. غير أن مقدار الصلوات وحصص التعليم الديني التي خضع لها عمر أدى إلى عكس الغاية المرجوة منها، ويبدو أنه غرّبه عن الدين تماماً. كان التلاميذ يستحمون يوم الخميس تحت الإشراف والمراقبة، ويؤخذون يوم الجمعة إلى خارج المدرسة، إلى جونيه أو ضبية عادة. وكان يوزَّع على الطلاب زيّان مدرسيان كل عام: جوخ في الشتاء، وكتّاني في الصيف. ومن المستغرب أن التلاميذ كانوا مجبرين على ارتداء الزي المدرسي عندما يغادرون المدرسة وفي أيام العطلة، لكنهم كانوا أحراراً في ارتداء ملابسهم الخاصة في الصفوف الدراسية. لكن عمر كان سعيداً، على الرغم من الانضباط الصارم ولغته التركية الضعيفة.

بيروت مختلفة عن القدس

في بيروت، اكتشف المراهق عمر القومية العربية والسينما والجرائد والبحر وبيوت البغاء – بهذا الترتيب إلى حد ما. كانت السنة سنة 1907، والمدينة تجيش بالثورة ضد الاستبداد العثماني، وبالحركات التي تدعو إلى الاستقلال الذاتي عن إستانبول. وفي رأي عمر فإن الحرية المتاحة في المدينة توازن الانضباط الداخلي الذي تفرضه عليه الحياة كتلميذ داخلي في المدرسة السلطانية في بيروت. كان يتعرض للسخرية والحط من قدره بسبب ضعف لغته التركية، لكنه كان يتدبر أمره في الحصول على إجازات مرضية، وفي التلذذ بمسرات المدينة.

في القدس، كان عمر يصادف بين الحين والآخر مستحدثات أوروبية قرأ عنها فحسب في القرية، أمّا في بيروت فكان الاختيار منها ماثلاً أمامه. كان يذهب بصحبة والده إلى المسرح في مقهى المعارف، قرب باب الخليل. وقد استمع إلى الغراموفون أول مرة في حياته، يصدح بالموسيقى المصرية والفرنسية المسجلة على أسطوانات شمعية في منزل الدكتور فوتي، الطبيب اليوناني. وأسكره الخمر الحلو الذي قدمته له ماريا. وهي التي علمته أيضاً تدخين السجائر الملفوفة. وارتاد السينما أول مرة بصحبة ابن عمه، وشاهد النظارة يفرون من القاعة خوفاً من التبلل بموج البحر العاصف الذي ظهر مكبَّراً على الشاشة.

لكن هذه المواجهات مع المؤثرات الأوروبية تبهت كلها قياساً بسعادة عمر الغامرة بالمستجدات التي لقيها في بيروت. ويرجع افتتانه بها جزئياً إلى غياب الإشراف العائلي في المدرسة السلطانية في بيروت، حيث يعيش ويتنقل وحده. لكنه يرجع أيضاً إلى تعرّفه على مدينة ذات طابع عالمي تفتقر إليه القدس. بل إن عمر يعدد، في قائمة مختصرة، مزايا بيروت تجاه القدس ويافا:

- الجرائد اليومية توزَّع في الصباح، وتطالب علناً باللامركزية وبجعل اللغة العربية اللغة الرسمية لبلاد الشام؛
- البيروتيون يرتدون ألبسة متنوعة لا تشاهَد في القدس ونابلس. فنادراً ما تشاهد الكوفية، بل إن الرجال يرتدون في معظمهم بدلاً منها الطربوش أو البرنيطة على بدلة أوروبية؛
- السيارات بدأت تحل محل العربات التي تجرها الخيول في كل مكان؛
- المطاعم والفنادق أفضل كثيراً من تلك الموجودة في القدس. كما أن المأكولات أكثر تنوعاً، والخدمة أكثر تقدماً ورقياً؛
- المقاهي والملاهي فيها غراموفونات تصدح بأحدث الموسيقى من سورية والأناضول ومصر. وثمة حياة ليلية غنية ومتنوعة، والحكومة تضبط عمل دور البغاء؛
- بحر بيروت فيه ميناء أمين تستقبل فيه الجمارك الواردات مباشرة، وينزل فيه المسافرون إلى البر.[16] أمّا في بحر يافا، فقد كان يتم نقل الركاب والسلع من السفن إلى مراكب أصغر تصل إلى الشاطئ للنزول إلى البر.

تأثر عمر تأثراً خاصاً بالمدنية المتكلفة في بيروت. وقد لاحظها في نزهات يوم الجمعة إلى ميدان سباق الخيل قرب حرج بيروت، وفي المتنزهات على شاطئ البحر، حيث كانت الطبقات الوسطى تتفاخر بثرواتها في لبسها وعرباتها. بل إنه وجدها في المقابر التي تنتشر فيها الأزهار والشواهد الرخامية المنقوشة.[17] (غير أن على المرء أن يلزم جانب الحيطة بشأن مقابلة عمر المبالغ فيها بين بيروت ويافا. فقد زار الكاتب النابلسي والزعيم الوطني الكبير، محمد عزة دروزة، بيروت قبل ذلك ببضعة أعوام، في سنة 1898، حين لم يكن ميناء بيروت الآمن قد أُنشئ بعد، وكان وصفه للمدينة أكثر تواضعاً، ولا سيما مقارنة بيافا ونابلس[18]).

حرية مفروضة؟

غير أن أكثر ما يحيّر في رواية عمر هو انتقاداته اللاذعة "المناهضة للإقطاع"، التي تزخر بها إشاراته الدائمة إلى "النظام البائد" في فلسطين.[19] فعند البحث في

(16) المصدر نفسه، ص 124 – 126. قارن هذا الوصف للحداثة بالجوهرية، المجلد 1.

(17) المصدر نفسه، ص 125.

(18) محمد عزة دروزة، "المذكرات"، الجزء الأول (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1993)، ص 120 –121.

(19) إنني أستخدم مفهوم "الإقطاع" هنا بطريقة فضفاضة للإشارة إلى نظام الامتيازات التي تجمّعت لدى شيوخ فلسطين الوسطى، الذين كانوا في معظمهم ملتزمين حتى صدور قانون الأراضي العثماني لسنة 1858. وللوقوف على بحث في هذه المسألة، انظر:

Alexander Scholch, "Was there Fendalism in Palestine?" in his seminal *Radical Transformation of Palestine* (IPS, 1991),

أهداف الجمعية العربية، وهي الحركة السرية التي انضم إليها في العشرينات (انظر أدناه)، كان في الغالب يشير إلى السلطة المتهاوية لشيوخ النواحي بطريقة تحقيرية: "إن نظام الإقطاع أصبح بالياً فاشلاً، ليس له جيش ولا قوة تُخضع الخارجين وتؤدب العاصين وتبطش بالمتمردين، فإذاً، زعامة الزعيم ترتكز على مرضاة التابعين، فإن عصوه انهارت زعامته..." (ص 145). وكان يشير بشكل متكرر إلى "النظام الإقطاعي الرجعي" و"الإقطاعية المتخلفة".

مع ذلك يبدي عمر، في أماكن أُخرى من مذكراته، اعتداده بإرثه، فضلاً عن استعداده لاستغلاله عندما يخدم ذلك مصالحه. فعلى سبيل المثال، استغل مركزه الاجتماعي المميَّز أيما استغلال عندما بدأ ينظم المقاتلين الشبان من منطقة بني زيد، ويدعوهم إلى الانضمام إلى الجمعية العربية. كما أنه يشير باعتزاز كبير إلى أواصر الزواج الحصرية التي تربط البراغثة في دير غسّانة بالعائلات الأرستقراطية في جبل نابلس، ولا سيما عائلتي الجيوسي والقاسم. وغضب غضباً شديداً عندما كان أفندية القدس يعاملون والده "على قدم المساواة، لا كما يعامله أهل القرى" (ص 91). فكيف يفسر المرء هذه المفارقة في وجهة نظر عمر؟

يكمن التفسير، إلى حد ما، في تمرد عمر الشخصي على والده، وهو آخر ممثل للنظام المنصرم. ومن الواضح أن الشيخ حسين كان ينتمي إلى المعارضة المعتدلة للعثمانيين. فقد كانت قيادته لحزب الفلاحين (نبحث في ذلك أدناه) متكاملة مع مؤسسات النظام بشكل تام، وتهدف إلى التنافس من أجل الوصول إلى التمثيل الصحيح في مجلس المبعوثان في إستانبول. وكان يعارض باستمرار خيارات عمر في اللحظات الحرجة من شبابه: رغبته في الدراسة في إستانبول بدلاً من بيروت؛ عضويته في الجمعية العربية وتحريضه ضد المتصرف العثماني؛ وربما الأكثر أهمية، رغبته التي أُهملت في عدم الزواج بابنة عمه.

في الوقت نفسه، كان عمر يهرب باستمرار من خلفيته الريفية، كما اتضح ذلك من رفضه ارتداء الحطة في القدس، وتبنيه لهجة مدنية معدَّلة (في حين أنه احتفظ بالفصحى كعلامة على التميز الأرستقراطي)، ونمط حياته العام. ويمكن التقاط هذا الافتتان بحياة المدينة من خلال تعرّفه الأول على يافا، التي يقابلها بانطباعاته السلبية عن رام الله في سنة 1904. وقد أخذه والده إلى فندق الظريفة، حيث كان يقدَّم فيه برنامج غنائي راقص، فكان ينسل إليه ليلاً.

> *وأحب الغلام يافا، ورأى فيها ما لم يره في القدس ونابلس: رأى بحراً يهدر، يقبّل أذيالها ويحمل إلى مينائها السفن، وتفوح منه*

ص 211 – 216 (الصفحات هنا تعود للترجمة العربية: "تحولات جذرية في فلسطين"، منشورات جامعة الأردن، 1988).

رائحة لها نكهة لذيذة، ومتى جلس المرء على شاطئه شاهد أمواجه تصطفق جامحة لتقبيل أقدام المارين متتابعة كقطعان الأغنام، والمراكب والزوارق والقلوع راسية ناشرة أفوافها (أشرعتها) باتجاه الريح.

بساتين البرتقال تطوقها وتنشر أريج عطورها، وفيها ناعورة وبركة ماء وأنواع الزهور الجميلة. كثرت الفنادق في سوق اسكندر عوض وكل مكان، وفرق الغناء والرقص وبيوت المواخير المباحة علناً. إن كثرة الملاهي والمراقص في بلد ساحلي وميناء بحري غير غريبة، مع أن هذا مخل بالمروءة والأخلاق والدين والآداب وعادات العرب والشرقيين. كل بناياتها من الحجر الرملي الرخو.[20]

الملاحظة الأخيرة للبرغوثي في شأن الإخلال "بالمروءة والأخلاق" جاءت كتعبير وصفي، ويمكن الجزم أنها لا تعكس موقفاً أيديولوجياً من جانب المؤلف تجاه الدين.

لذا يجب ألاّ تؤخذ مناهضة عمر للإقطاعية على ظاهرها. لقد كانت أساساً بحثاً عن الحداثة، وعن وضع اجتماعي متحرر افتقده في بيئته القروية. وكانت كذلك مساراً اتخذه لنفسه، فضلاً عن جدول أعمال إصلاحي أمل بأن يرفع شأن المجتمع ككل. وقد جرى التعبير عن هذا الميل الإصلاحي بشكل دائم في مساندته تعليم المرأة، وهو الأمر الذي استمر يحظى بحماسة شديدة وغير عادية طوال مسيرته. فقد تفاوض قبل الحرب مباشرة مع مبشّرة إنكليزية من عابود، هي الراهبة نيكولسون، كي تفتح مدرسة للبنات في دير غسّانة. ولهذه الغاية، أقنع والده بالمساهمة بغرف للمدرسة، وبتقديم غرفتين في قصر العائلة مسكناً للمعلمات. وبعد ذلك ضغط على المخاتير المحليين لتوقيع مذكرة بدفع رواتب المعلمات، وذلك ضد رغبات المسنين في القرية. وقد كان عمر حريصاً، على الرغم من تخليه عن لقبه الإقطاعي، على الاحتفاظ بالامتياز والمكانة والسلطة التي تأتي مع حقوق السيد الموروثة.

(20) البرغوثي، مصدر سبق ذكره، ص 108.

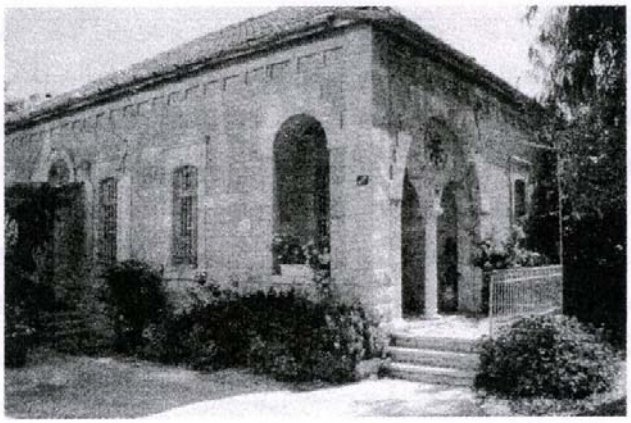

منزل عمر الصالح في القدس، ولاحقاً مسكن قليبو.
مصدر الصورة: أرشيف رواق

غير أن مخططات والد عمر والالتزامات العائلية كانت تحبط دائماً بحث عمر عن التحرر الشخصي. وقد حدثت أول أزمة كبرى عندما رأى الوالد أن يزوج عمر بإحدى بنات عمه، ويبدو أن ذلك كان يهدف إلى إبعاده عن تعاطي السياسة. ولم تدم مقاومة عمر طويلاً:

اعترض الفتى على هذا الرأي الفج، واعتذر بأنه لا يزال صغيراً ولم يكمل دراسته بعد وأنه متى أتمها سيتزوج، أمّا الزواج والانصراف إلى العلم فهذان لا يتفقان، وقد قال الأولون "دفن العلم بين أفخاذ النساء"، فمن الزواج يأتي الأبناء وتتسع المسؤوليات، ومن الحكمة والعقل تأجيله، وعدم اتباع مناهج الأجداد التي تَبيَّن خطلها. أمّا ابنة العم فهي جاهلة لم تبرح القرية ولا تقدر أن تجاري تيارات الحضارة الجارفة.[21]

سلّم عمر بأمر الزواج عندما فشلت احتجاجاته، لكنه قرر أن يفرض قوانينه فيما يتعلق بالسلوك المنزلي لعروسه، وهي:

(1) أنها شريكة الزوج لا خادمته وكل منهما متمم للآخر.

(2) أن لا تقبّل يده، وتعامله معاملة الحبيب حتى يتبادلا احتراماً باحترام.

(3) ألزمها أن تتناول الطعام معه، وتعدّه في أوقاته، وتعتني بزيّها وهندامها.[22]

لا ريب أن هذه الفروض، التي تقيم المساواة بين الزوجين، كان لها وقع ثقيل على المرأة المسكينة. لكن هذه الفروض كانت ثورية حقاً بالنسبة إلى مجتمع القرية الجبلية الفلسطينية. ولا شك في أن القارئ لحقت به خسارة عظيمة بسبب حذف مقاطع رئيسية من النسخة المطبوعة تبحث في شؤون العائلة الحميمة.[23] لكننا نعرف أن العهد الذي

(21) المصدر نفسه، ص 149.

(22) المصدر نفسه، ص 151.

(23) المحررة، الراحلة رفيف البرغوثي، حفيدة عمر، والتي توفيت في أوائل سنة 2002، كانت جريئة في نشر كل مداخله السياسية، الأمر الذي أدى إلى منع الكتاب في الأردن. لكن يبدو أنها ارتأت عدم نشر إشاراته المثيرة للجدل بشأن حياة

أقامه عمر مع زوجته فشل. وعندما انتقل إلى القدس، رفضت الانتقال معه إلاّ بعد أن هددها بقطع صلاته بها. وعندما رُزقا طفلاً، رفضت اسم "مصعب" الذي اختاره له وأصرت على مناداة الصبي باسم "جميل". وكانت تنفر بشكل خاص من الزائرات الجميلات، وذلك موقف غير مفاجئ عندما نطّلع لاحقاً في مذكراته على إشارات واضحة إلى مغامراته مع النساء. وقد اشتكى عمر بمرارة من أنها "لم تقدّر هذا الاحترام، وكانت تثير موجات السخط والغضب والنكد لغير ما سبب." (ص 151)

كلنا عثمانيون

بعدما أُرسل عمر إلى بيروت للدراسة، بدأ يقدّر طبيعة الانقسام الرئيسي في الحركة الوطنية في سورية بين الاتحاديين ودعاة اللامركزية العثمانية (الائتلافيين).[24] وأصبح قارئاً نهماً للصحافة المعارضة، "المفيد" و"الرأي العام"، وأعلن ولاءه للقضية العربية.

لكن الشعور بالعروبة عند عمر كان متناقضاً، مثلما كانت ميوله المناهضة للأتراك متحفظة. والمذكرات التي بين أيدينا مملوءة بالتناقضات في شأن هذه المسألة، ويرجع ذلك بشكل جزئي إلى إعادة كتابتها على أساس المذكرات التي فقدت في الحرب العالمية الأولى خلال نهب منزله. في ذلك الوقت، كان الشعور المناهض للأتراك قد ازداد حدة بسبب السلوك القاسي للضباط الألمان والأتراك تجاه مجنديهم العرب. غير أن تناقض المشاعر يظهر بصورة رئيسية نتيجة معرفة عمر الوثيقة بضباط أتراك وسوريين ينتمون إلى الفئتين المتنافستين الرئيسيتين في السياسة العثمانية، الاتحاديين والائتلافيين، وخصوصاً بالضباط الذين أرادوا أن ينشئوا حقاً دولة دستورية متعددة المواطنة تحت السيادة الإمبراطورية للدولة العثمانية.

يتضح هذا الإبهام بشأن حدود القومية العربية في مناقشة عمر للحركات السياسية الثلاث التي نشط في صفوفها وهو فتى. الأولى كانت عضويته في "جمعية الفلاَح لنجاح الفلاّح" التي أسستها مجموعة من زعماء الإقطاعيين في القدس وترأسها الشيخ محمود الصالح، والد عمر. وكان من أهدافها تأييد الدستور الجديد ومد يد العون للانقلاب في إستانبول.[25] وعندما حاول السلطان عبد الحميد إلغاء الدستور، عبأت الجمعية آلاف المساندين المسلحين في منطقة القدس دعماً لمحمود شوكت باشا وقيادة الحركة الدستورية في تركيا حتى تم إلقاء القبض على السلطان ونفيه إلى سالونيك. وفي أعقاب الانقلاب، قام الفلسطينيون المؤيدون للامركزية العثمانية

العائلة وعشيقاته.

(24) للوقوف على الخلافات بين هاتين الفئتين، نحيل القارئ على كتاب حسن كيالي (Hasan Kayali) الوارد أدناه في الحاشية 31.

(25) البرغوثي، مصدر سبق ذكره، ص 111 – 112.

والقوميون العرب بدور فعال في إرسال الموفدين البرلمانيين من القدس (التي كان لها ثلاثة مقاعد) إلى البرلمان الجديد في إستانبول. وقد فشلوا، على حد قول البرغوثي، لأن الاتحاديين كانوا يسيطرون على الصحافة المحلية والمؤسسات الحكومية ووحدات الاستخبارات.

عندما اندلعت الحرب،[26] كان عمر في دير غسّانة يسترد عافيته بعد إصابته بكسر في ساقه. وهناك اتفق مع عشرة أفراد من عشيرته على إنشاء حركة سرية، هي "الجمعية العربية"، بغية تكثيف النضال ضد الاستبداد العثماني. وقد اشترطوا أربعة شروط للانضمام إلى الجمعية: يجب أن يكون العضو دون الثلاثين من العمر، وأن يمتلك بندقية و100 طلقة على الأقل (ومن لم تساعده أوضاعه على شراء بندقية، يسمح له بالانضمام بمسدس)، ويجب أن يُزكّى المرشح من عضوين، ويجب أن يُقسِم يمين الولاء للوطن العربي. وقد رفعت الجمعية العلم العربي لبلاد الشام في مقارها ومجمّع الصالح، وارتفع عدد أعضائها خلال شهر إلى 150 مقاتلاً.

غير أن سياسة "الجمعية العربية" لم تكن واضحة تماماً. ويبدو من وصف عمر أن المجموعة كانت تقلد عادات قبضايات البلدة القديمة، وتتعاطى بشكل أساسي أعمال العصابات الريفية، من تدريب على استعمال السلاح وفرض "الخوّات" وتأديب المعارضين. وكان للجمعية فروع في القرى المجاورة، كبيت ريما والنبي صالح وعابود وبلدات بني زيد الأُخرى. وبلغ عدد أعضائها الفاعلين 800 عضو في ستة أشهر. غير أن عدم ذكر "جمعية الفلاّح" و"الجمعية العربية" في الكتابات عن التيارات السياسية السورية في الحركة العثمانية المتأخرة يشير إلى أن البرغوثي كان يبالغ في وصف تأثيرهما، أو أنهما – وهو الأمر الأرجح – كانتا حركتين محليتين تتخذان من القدس مركزاً.[27]

لم تكتسب "الجمعية العربية" وجهة نظر سياسية عريضة وإحساساً بالانتماء القومي إلاّ بعد أن انضم عمر إلى الضباط الفلسطينيين الساخطين من الجيش العثماني والناشطين في صفوف حزب العهد، وهو الحزب الذي انضم إليه سنة 1912. وكانت أهداف الحزب المعلنة مماثلة لأهداف الحركات القومية الأُخرى في سورية العثمانية التي تناصر المعتقدات التالية:

- أن تكون اللغة العربية لغة رسمية للدولة، وأن تُستعمل وحدها في الأقاليم العربية؛

(26) البرغوثي مهمل في تأريخ مداخله (أو عدم تأريخها البتة) تاركاً للقارئ أن يخمن تاريخ الحدث من السياق. ولإضافة مزيد من الالتباس، فإنه يعود في الغالب إلى أحداث سابقة لتنميق روايته.

(27) لم يرد ذكر لأي من الحركتين في مذكرات محمد عزة دروزة، الذي عايش الحركات الداعية إلى اللامركزية العثمانية في منطقة نابلس في الفترة نفسها ونشط فيها.

- أن يكون عدد النواب في برلمان إستانبول بنسبة العرب من السكان ككل؛
- أن يشكل العرب نصف عدد الوزراء في الحكومة، وأن يعيَّن المسؤولون العرب في الوظائف الحكومية في الأقطار السورية؛
- تطبيق اللامركزية على إدارة الشؤون الداخلية.

ولتنفيذ هذه الأهداف، بدأت "الجمعية العربية"، بمساعدة حزب العهد، تدعو إلى مقاطعة دفع الضرائب، ثم تلا ذلك دعوة إلى ثورة عامة. وبلغ الائتلاف لحظة المجد عند تنظيم عرض للقوة العسكرية في موكب النبي صالح قرب دير غسّانة، شارك فيه مئات الأعضاء من قرى بني زيد.

كان الإنجاز الوحيد لهذا العرض العسكري لفت انتباه متصرف القدس العثماني ومخبريه. فاستدعوا قادة الحزب وألقوا القبض عليهم. وحُظرت "الجمعية العربية". أمّا عمر فقد عُيّن مأموراً للتبغ، وهو المسؤول عن الإفادة عن التبغ المزروع بصورة غير قانونية في منطقة بني زيد وإتلافه. وبعد عدة أشهر، عُيّن مأمور تعداد الأغنام، ومهمته فرض ضريبة الأغنام على الرعاة. ومما يعطي صورة واضحة عن شخصية عمر تصويره هذه "المهمات" وعدداً من "التراجعات" السياسية طوال مذكراته بأنها أعمال قام بها لخدمة المجتمع.

> *قصد المتصرف من إسناد هاتين الوظيفتين إلى الفتى، على صغر سنه، إبعاده عن جو السياسة [بتواطؤ من الشيخ حسين، والد عمر، في الظاهر – س. ت.]، واستمالته بالراتب المغري، ولكنه قام بما عهد له به، ولم ينقطع عن الاتصال برجال الجمعية وحثهم على التمسك بمبادئها.*[28]

وبينما تقدم المجهود الحربي وأخذ يوقع الخسائر بين المجندين الفلسطينيين، بدأت المشاعر المحلية تتحول ضد الأتراك، وأصبحت أنشطة حزب العهد سرية في صفوف الضباط العرب والموظفين الحكوميين المدنيين. ونُصح لعمر من جانب صلة وصله بالحزب، القائد السوري حلمي بيه، أن يتحفظ في التعبير عن آرائه، وأن يظهر ولاءه العلني للباب العالي.

تشير التذبذبات في تكتيكات الجماعات السياسية في القدس وأهدافها، في تلك الفترة، إلى أن النخب المحلية كانت لا تزال حبيسة رعاية الباب العالي للمجموعات الإقطاعية الإقليمية. وكان والد عمر، وربما عمر نفسه، ينتمي إلى العناصر التي تحظى بامتيازات في المقاطعات الفلسطينية والسورية، بحيث أنها كانت لا تزال تحاول العثور على بنية سياسية تحمي علاقتها بالحكومة المركزية، بينما ترتبط في الوقت

(28) البرغوثي، مصدر سبق ذكره، ص 148.

نفسه ارتباطاً فعالاً بالمجموعات المحلية التي تسعى للاستقلال الذاتي عن إستانبول. وهذا الاستمرار في اللعبة السياسية القديمة، بأسماء جديدة، يفسر لماذا كان في وسع البرغوثي أن ينخرط في عدد من مجموعات المعارضة السياسية (الفاشلة في معظمها)، ثم يرتد إلى صلات عائلته عندما تنهار هذه المحاولات أو يلقى القبض عليه. وعندما بدأت قيادة الحركة الدستورية تسلك بشكل متزايد سبيل التتريك، لم يعد يمكن الدفاع عن هذا الخيار الإصلاحي – الاستقلالي في المقاطعات السورية.

عندما جُنّد عمر في الجيش العثماني سنة 1914، كان من مهماته المساعدة في تعبئة القرويين بمعسكرات الجيش في منطقة القدس، بتدبيج الخطابات الحماسية وتحريضهم على "محاربة أعداء الدين" (ص 158)، وهو ما قام به بشيء من الحماسة. لكن مع تقدم الحرب تحولت المشاعر العامة في سورية وفلسطين، ومعها أهداف حزب العهد، إلى اتجاه معاد للأتراك بشكل علني. وبدأ حزب العهد يتآمر سراً لانفصال المقاطعات العربية عن الإمبراطورية. ووفقاً لمداخل عمر في مذكراته، استدعى جمال باشا، حاكم سورية، الجيش العاشر من إزمير لمنع الثورة المحتملة. وكان من مآثر هذا الجيش إلقاء القبض على كثيرين من الضباط الناشطين في الحزب وإعدامهم. في هذه المرحلة، كان البرغوثي يقوم بدور مزدوج على الصعيد السياسي: كان لا يزال يخدم كضابط على الجبهة التركية الجنوبية، لكنه كان أيضاً عضواً في حركة تسعى بشكل فعال لتقويض المجهود الحربي. وفي وقت لاحق، عندما رُقّي عمر إلى منصب ضابط التموين في بئر السبع، زُوّد بتعليمات لتشجيع الجنود العرب على الفرار والالتحاق بجيش الشريف حسين. كما طُلب منه أن يخرب المجهود الحربي بحرق مخزن أغذية تابع للجيش، وهي مهمة رفض تنفيذها. وبدلاً من ذلك منح الجنود إجازة مطولة باستخدام أوراق مزوّرة.

على غرار كثير من الشبان في فلسطين العثمانية خلال الحرب، أُعجب عمر بشخصية جمال باشا، وهو من الشخصيات الرئيسية في الحركة الاتحادية. كان جمال باشا مرهوب الجانب ومكروهاً كخصم للوطنية والانفصالية السورية التي يتصاعد تيارها، لكنه كان يحظى بالإعجاب كقائد عسكري شرس، جهد حتى نهاية الحرب لإبقاء فلسطين وسورية ضمن النظام العثماني.

لكن عند انتهاء الأعمال الحربية، يقول عمر ما يلي عن الجيش العثماني المنسحب:

> *وطافت على ألسنة الخاصة إشاعة غمرت المحافل بأن الحلفاء فاوضوا جمال باشا على أن يشق عصا الطاعة، ويعلن دولة عربية من فلسطين ولبنان وسورية والعراق ويكون رئيسها، ويخلع رجال تركيا وينضم إلى الحلفاء. وكان الناس يرحبون بهذا النبأ، ويميلون*

إلى تصديقه، إلاّ إن الحقيقة لم تبلغ هذا الحد وإنما قيل كانت هنالك عروض ومفاوضات لم تَسرِ في طريق النجاح.[29]

ليس المهم في هذه القصة صحتها، وهذا أمر مشكوك فيه جداً، وإنما استعداد كثيرين من الفلسطينيين لتصديقها ومساندتها. وتعكس هذه الظاهرة تناقض مشاعر كثير من المثقفين الوطنيين العرب في تلك الفترة، من أمثال عمر، تجاه الانفصال عن إستانبول.[30] ويعكس موقف عمر من جمال باشا تصويراً متعدد الجوانب أقرب إلى الصورة التي يرسمها المؤرخون العثمانيون التعديليون – الذين يحاولون إعادة النظر في سمعته بشأن معاداة العرب ومعاداة السوريين – من الموقف السائد في التأريخ القومي العربي.[31]

الحرب كأداة للحداثة

من نقاط الضعف الكبرى في هذه المذكرات الميل المزعج لدى الكاتب إلى قطع روايته الشخصية بمداخلات سياسية وتاريخية، كان يمكن بسهولة نقلها إلى جزء منفصل، وهي على أي حال متوفرة بيُسر في كتب التاريخ المؤسسة على تلك الفترة. لكن القارئ يكتسب كثيراً من الذكريات الواضحة والإدراك الشخصي للحدث حينما يكون عمر شاهداً مباشراً على تلك الأحداث التاريخية. ويروي أحد أكثر الأحداث إثارة في كتابه انهيار الجبهة الجنوبية في أثناء خدمته ضابطاً في بئر السبع وهربه لاحقاً إلى دير غسّانة، حيث يحاول الانسلال بين الجيشين التركي والألماني المنسحبين وبين القوات البريطانية المتقدمة. وفي هذه القصة يندمج الشخصي والسياسي في أفضل صورة.

يعيد يعقوب العودات رواية القصة نفسها مع إضافة تنميق رئيسي واحد في مقالته عن السيرة الذاتية لعمر:

وفي عام 1917، قبل سقوط القدس بيد الإنكليز، نفي [عمر البرغوثي] إلى أنقرة، أسوة بالشبان العرب الذين عمد الأتراك إلى تشريدهم ونفيهم إلى مجاهل الأناضول تخلصاً من وعيهم القومي

(29) المصدر نفسه، ص 187.

(30) من المصادر المهمة الجيدة في شأن المواقف الفلسطينية والسورية من جمال باشا، وفيما يتعلق بالمشاعر العربية تجاه المسألة العثمانية في أثناء الحرب العالمية الأولى:

James Gavin, *Divided Loyalties: Nationalism and Mass Politics in Syria at the Close of the Empire* (University of California Press, 1998).

(31) انظر:

Hasan Kayali, *Arabs and Young Turks: Ottomanism, Arabism, and Islamism in the Ottoman Empire, 1908-1918* (University of California Press, 1997), "Syria Under Cemal Pasha's Governorship," pp. 192-195. وخصوصاً القسم المتعلق بـ

وشعورهم العربي، لكنه هرب إلى جنين بلواء نابلس [....] ومن هذه هرب إلى كور – بلد الجيايسة.[32]

لكن العودات أورد الوقائع بصورة مغلوط فيها. ولعله خلط بين عمر ووالده الذي صدر فعلاً أمر بنفيه إلى أنقرة لكنه لم يصل إليها (يتكتم عمر عن سبب نفي والده، وهو الشخصية المعتدلة بشكل ظاهر، والداعية إلى التوافق مع العثمانيين).

القصة التي يرويها عمر أكثر إثارة للاهتمام، وتتسم بطابع مغامرة عسكرية من الدرجة الأولى. وفيها يهرب من موقعه العسكري في صحراء النقب، وينتقل متنكراً إلى القدس، حيث يشارك في جدال كبير مع وجهاء المدينة – المجتمعين في بيت خليل السكاكيني في البلدة القديمة – بشأن إعلان القدس مدينة مفتوحة (أي منطقة غير حربية) وتسليمها للحلفاء. وفي أثناء اختباء عمر في القدس يلتقي فوزي القاوقجي، وهو الضابط العثماني السوري الذي سيقود جيش الإنقاذ في فلسطين بعد ذلك بثلاثين عاماً، والعقيد عصمت إينونو، رئيس أركان الجيش العثماني الثامن ورئيس تركيا في المستقبل. وفي هذه النقاشات، كان للقادة الألمان في القدس الكلمة الفصل، ورفضوا إعلان القدس مدينة مفتوحة.

منذ ذلك الحين، أصبح عمر طريداً فاراً. فهجر بيته ومتاعه وحاول الوصول إلى الجيش البريطاني لتسليم نفسه. وخلال هذه العملية، أصيب بالرصاص مرتين ونقل في النهاية إلى مستشفى بريطاني نقال في عابود، ثم إلى يافا للنقاهة. ولمّا برح المستشفى "زاره رئيس الاستخبارات السياسية [البريطانية]، 'مستر ديدس'، وحدثه باللغة التركية، وهنأه بالسلامة، واستوضح منه عن ميول العرب واتجاهاتهم، وتغنى بالصداقة العربية – الإنكليزية التقليدية، وطلب منه الخدمات التي يريدها وذهب" (ص 209). وهكذا أُسدل الستار على الحقبة العثمانية في حياة عمر.

لا يسع المرء إلاّ أن يكوّن انطباعاً بأن البرغوثي كان يتمتع بالقدرة على البقاء. ويتضح ذلك من سخريته تجاه استخدام العثمانيين الدين لتعبئة الفلسطينيين عندما كان الحلفاء يتقدمون على الجبهة المصرية. كما يتضح من استخدامه الواسع لمناصبه في الجيش والحكومة وتجييرها لخدمة حياته العملية والمساهمة في الوقت نفسه في تقدم التزاماته الأيديولوجية تجاه القضية العربية. لكن تمكُّن عمر من رؤية التأثير طويل المدى لهذه الأحداث المهمة في مستقبل فلسطين دليل على قدراته التحليلية وحبه للاستطلاع. فعمر قبل كل شيء يتأمل بشكل شامل في تأثير الحرب فيما يعتبره السلوك الاجتماعي للبلد. وهو يقول في هذا المجال:

(32) العودات، مصدر سبق ذكره، ص 42.

تطور العرب باحتكاكهم مع الألمان، فسرت العدوى بين الناس من هذا الاختلاط، وتفاعل الجمود الشرقي بلقاح الأوروبيين، وانصهر الرجال والنساء في بوتقة المظاهر الحديثة، وزالت الحدود والحواجز الفاصلة بين الأفراد والجماعات، فتقاربت العقليات وتوحدت الميول وتعاطفت العادات، فالضعيف تأثر بالقوي وقلده، وخطا خطوات واسعة إلى الأمام، ولو لم تكن الحرب ولم يحصل هذا الاختلاط والتعاشق لما وصل العرب إلى ما وصلوا إليه بعد عشرات السنين.[33]

يسرد عمر بعد ذلك بعض هذه التغيرات البارزة، السلوكية والأيديولوجية على السواء. ومن التغيرات السلوكية يذكر رفع البرقع عن النساء، بين المسيحيات أولاً ثم بين المسلمات، إلى أن اعتُبر البرقع عادة رجعية. ويذكر أيضاً مجتمعات مقاهي الطبقة المتوسطة وشرب الكحول، إلى حد أنه سمع بعض المسلمين يزعم أن معاقرة الكحول غير محرمة.

ومن التغيرات الأيديولوجية التي أحدثتها الحرب، يذكر عمر ظاهرتين بارزتين. فهو يذكر أولاً أن الالتزام بالدين أصبح طقسياً فحسب. إذ صار "المسلمون [....] يتنكرون للصلاة، واستخفوا بالأعلام النبوية، وشعرات النبي والآثار الدينية."[34] وكان ذلك سنة 1916.

والظاهرة الأيديولوجية الثانية التي يشير إليها عمر هي ظهور القومية العربية، التي أطلق شرارتها محاولات تتريك المقاطعات العربية وقمع الكرامة الوطنية العربية واللغة العربية. وقد طوّر كثيراً من هذه التأملات في حوارات مفعمة بالحيوية مع ثلاثة من رفاقه المفكرين: نخلة زريق وخليل السكاكيني (أستاذه) وإسعاف النشاشيبي. وفي معظم هذه المناقشات، "كان يستمع ولا يشترك" (ص 193)، ربما بسبب اختلافه مع رفاقه الذين يكبرونه سناً. لكن عمر كان طوال الوقت يكوّن انطباعاته عن الحقبة الجديدة المقبلة، وكان يشعر بحماسة منقطعة النظير نحو الآتي المجهول. ■

(33) البرغوثي، مصدر سبق ذكره، ص 192.

(34) المصدر نفسه. ولعل عمر يشير هنا إلى المشاركة في المواسم الدينية، مثل النبي موسى والنبي صالح.

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
http://www.palestine-studies.org/ar/mdf